

مقياس: مصادر اللغة والأدب والنقد

I. مصادر اللغة العربية (تكملة)

المحاضرة السادسة: لسان العرب لابن منظور

التعريف بالمؤلف:

هو أبو الفضل جمال الدين بن منظور الإفريقي المصري، كان يُنسب إلى رُويع بن ثابت الأنصاري، وُلد في المحرم من سنة 630 هـ، ومن أساتذته نذكر: يوسف بن المخيلى وعبد الرحيم بن طفيل ومرتضى بن حاتم.

عمل ابن منظور في ديوان الإنشاء طوال حياته، وولي قضاء طرابلس، هذا من الناحية الوظيفية، أما من الناحية العلمية فقد برز نجمه في سماء علوم شتى، أبرزها: اللغة والأدب والنحو والكتابة والتاريخ والإنشاء....

وقد كان ابن منظور مولعا باختصار الكتب المطولة التي ظهرت قبل عصره، فلم يكن يدع كتابا منها إلا وقضى الليل ساهرا في اختصاره لمؤلف وجيز الحجم خفيف المأخذ، حتى قيل إن مختصراته بلغت خمسمائة مجلد، ومن أشهر مختصراته نذكر اختصاره لـ: الذخيرة لابن بسّام، وتاريخ دمشق لابن عساكر، والأغانى لأبي الفرج الأصفهاني.

هذه الهواية الغريبة لم تنعكس عليه عند تأليف كتابه (لسان العرب)، فقد جاء هذا الأخير طويلا مسهبا في الشرح والتفصيل. وهنا قد يستغرب القارئ لفعلته تلك، غير أن المتمعن في جهد ابن منظور يجده أنه من خلال وضعه كتاب (لسان العرب) قد قام بتلخيص خمسة كتب سابقة له اعتمد عليها عند تصنيف (لسان العرب)، وهذه الكتب الخمسة هي :

تهذيب اللغة للأزهري، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، الحواشي على الصحاح لابن برّي والنهاية في غريب الحديث وأرّ لابن الأثير.

سبب تأليف (لسان العرب):

يقول ابن منظور في مقدمة كتابه هذا: (وإني لم أزل شغوبا بمطالعات كتب اللغة والاطّلاع على تصانيفها وعلل تصاريفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أما من أحسن جمعه فإنه لم يُحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه، فلم يُفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع).

ومعنى هذا الكلام أنه يرى أن السابقين لم يُوفّقوا في الجمع بين حسن التأليف من حيث جمع المادة وحسن الوضع من حيث ترتيب المداخل. فلسان العرب مصنّف لغويا كما نرى مع كتب المعاجم، وإن كانت لفظ (معجم) لم تكن منتشرة آنذاك بين اللغويين كما هو حاصل اليوم في زماننا.

ومن خلال كلمات ابن منظور نستشف أن المصادر الخمسة التي اعتمدها لبناء معجمه تفاوتت من حيث القدرة على الجمع بين حسن الجمع وإجادة الوضع أي الترتيب، فبإمعان النظر نفهم أن تهذيب اللغة للأزهري والمحكم والمحيط الأعظم لم ينجحا في حسن الوضع بل اكتفيا بالعناية بجمع المادة المعجمية بشكل صحيح مشبع للقارئ. وعلى الخلاف من ذلك نجد أن تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري و الحواشي لان برّي قد تمكّنا من اختيار نهج الترتيب السليم والسهل بحسب رؤية ابن منظور.

والدليل على ذلك أن لسان العرب قد استوعب 80 ألف مادة معجمية، بخلاف الصحاح الذي اكتفى بجمع 40 ألف مادة فقط.

فكان ابن منظور قام بعملية توفيقية بين تلك المصادر الخمسة، إذ يقول في ذلك: " فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرّق فانتظم شمل تلك الأصول كلها في هذا المجموع.... وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى فأقول : شافهت أو سمعت، أو فعلت أو صنعت، أو شددت أو رحلت، أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت، فكل هذه الدعاوي لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالاً....."

لذلك امتد حجم (لسان العرب) حتى ناهز العشرين جزءاً، غير أن المتأمل في كلام ابن منظور سيفهم أنه رد كل خلل فيه أو زلل أو خطأ إلى الذين سبقوه واعتمد على مؤلفاتهم لينسج لنا كتابه (لسان العرب) وهذا ما يؤكد فكرة ميله لاختصار المطوّلات. يقول في ذلك: " فمن وقف فيه على صواب أو زلل، أو صحة أو خلل، فعُهدته على المصنّف الأول ، وحمده وذمّه لأصله الذي عليه المعوّل ، لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدل منه شيئاً.... بل أدّيت الأمانة في نقل الأصول بالفصّ، وما تصرّفت فيه بكلام غير ما فيها من النص."

منهج الترتيب في لسان العرب:

اختار ابن منظور منهج الجوهري في الترتيب بحسب الأواخر بعد تجريد الكلمة من زوائدها، فجعل الحرف الخير باباً والحرف الأول منها فصلاً، فالباحث عن كلمة (مكتبة) يجدها في : باب الباء فصل الكاف.

وقد أضاف ابن منظور لكتابه مقدمة طويلة تميّز بها استعرض من خلالها مكانة اللغة العربية وشأنها بين الأمم وأوضح فيها سببت تأليفه الكتاب في عصر المماليك حيث انتشر الاعتزاز باللغات الأعجمية والانصراف عن اللغة العربية الفصيحة، لذلك راح يقول إنه صنعه أي لسان العرب- كما صنع نوح عليه السلام الفلك وقومه منه يسخرون.

وقد تضمنت المقدمة حديثاً غريباً عن طبائع الحروف العربية وقدرتها السحرية بما تحمله من دلالات مبهمة أشبه ما تكون بالألغاز، وقد كان اعتماده هنا على ما دونه المنشغلين بكتب السحر من أمثال: الحرالي والبعليكي وغيرهما.

وقد اتجه النقاد اللغويون إلى اعتبار ذلك الجزء من المقدمة غير ذي قيمة أو أهمية في صنيع ابن منظور، بل عدّوه زيادة لا معنى لها ولا تخدم محتوى الكتاب.

السمة الموسوعية في (لسان العرب)

يُعدّ لسان العرب - والتسمية تدلّ على ذلك - على المنحى الموسوعي الذي انتهجه ابن منظور في التأليف، وقد سبق إشارتنا إلى كون هذا اللغوي ينتهج سبلا علمية عديدة في اللغة والأدب والتاريخ وغيرها، لذلك نجد (لسان العرب) يعجّ بالمعلومات الأدبية والعلمية والدينية والتاريخية، ويقدم شرحا مسهبا متوسعا لطبيعة الحياة العربية في تلك الفترة التي عاشها ابن منظور وحتى تلك التي سبقتها واستلهمها من المصادر الخمسة التي اعتمدها، على نحو لا يجعله مفيدا في مجال المعجمية العربية وحسب، بل تمتد المنفعة منه إلى شتى ضروب العلم والمعرفة، ولعل هذا ما كتب النجاح لهذا المؤلف، ومنحه الحياة قرونا مديدة حتى انتفع به طلبة العلم في عصرنا.

طبقاته واختصاراته:

في العصر الحديث قام عبد الله الخياط بإعادة ترتيب مادة (لسان العرب) بحسب الحرف الأول من كل كلمة وذلك بغية التيسير على طلبة العلم المعاصرين. وقد منحه عنوانا: لسان العرب المحيط.

وقد طُبِعَ لسان العرب لأول مرة بالمطبعة الأميرية المصرية ببولاق سنة 1300 هـ في عشرين مجلداً يبلغ مجموع صفحاتها نحو ستة آلاف صفحة.

ولكي تكتمل الصورة أماننا بوضوح فلا بدّ أن نعرّج في ختام هذه المحاضرة على كتاب (القاموس المحيط) الذي يُعدّ تنويجا لمنهج الصحاح ولسان العرب:

القاموس المحيط للفيروز أبادي

التعريف بالمؤلف:

هو مجد الدين أبو طاهر الفيروز أبادي وُلد بكارزين ببلاد فارس بعد وفاة ابن منظور بحوالي 18 سنة أي سنة 729 هـ،

انتقل بعدا إلى شيراز ومنها إلى العراق ثم القاهرة، ثم بلاد الشام وبلاد الروم وبلاد الهند، وانتهى به المطاف في زبيد باليمن سنة 796 هـ، وهناك قضى أواخر أيامه وتوفي بها سنة 817 هـ، وهو تلميذ ابن قيم الجوزية، ومجد الدين الصلاح الصفدي والبهاء بن عقيل...

سبب تأليفه:

يقول الفيروز أبادي: " وإني قد نبغت في هذا الفن قديما – يقصد اللغة والأدب- وصبغت به أديما ، ولم أزل في خدمته مستديما ، وكنت برهة من الدهر ألتبس كتابا جامعا بسيطا ومصنفا على الفصح والشوارد محيطا، ولما أعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم باللامع المعلم العجائب الجامع بين المحكم والعُباب، فهما عُرتا الكتب المصنفة في هذا الباب... وضممت إليها زيادات امتلأ بها الوطاب، واعتلى منها الخطاب، ففاق كل مؤلف في الفن هذا الكتاب...". نفهم من هذا الحديث أن الفيروز أبادي قد اعتمد في تأليف القاموس المحيط على كتابين هما: العُباب للصغاني (ت 650 هـ) والمحكم والمحيط العظم لابن سيده (ت 458 هـ)، وعلى الرغم من اختلاف منهج الترتيب في الكتابين – بحيث انتهج ابن سيده الترتيب الصوتي وانتهج الصغاني الترتيب بحسب الأواخر- إلا أن الفيروز أبادي قد وجد فيهما صالته، من حيث استيفاء المادة المعجمية وتوسّعها، وهذا ما كان يبغيه المؤلف إذ عاب على الجوهري أنه فاتّه في الصحاح نصف اللغة أو يزيد، لذلك نجد القاموس المحيط قد جمع 60 ألف مادة معجمية، يقول الفيروز أبادي: "ولمّا رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاتّه نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة أو بترك المعاني الغريبة النادرة، أردت أن يظهر للناظر بادئ بدء فضل كتابي هذا عليه ، فكتبت بالحُمرة المادة المهملة لديه... ولم أذكر ذلك إشاعة للمفاخر، بل إذاعة لقول الشاعر : كم ترك الأول للآخر."

ومن مقدمة القاموس المحيط نفهم أن الفيروز أبادي كان ينوي تأليف كتاب جامع يقع في 60 سفرا –أي جزءا- غير أنه عدل عن تلك الفكرة خوفا من أن لا يمهلك العمر، فاختصره كما يدّعي في هذا الكتاب (القاموس المحيط)، يقول في ذلك: " غير أنني خمنت في ستين سفرا يُعجز تحصيله الطلاب، وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام، وعمل مفرغ في قالب الإيجاز والإحكام، مع التزام تمام المعاني وإبرام المباني، فصرفت صوب هذا القصد عناني، وألّفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزوائد، مُعربا عن الفصح والشوارد..."

منهج الفيروز أبادي في التأليف:

كما أشرنا اعتمد الفيروز أبادي على منهج الجوهري في الصحاح رغم انتقاده له بأنه أهمل الكثير من المواد المعجمية، وقد اختار اللون الأحمر ليعبر به زياداته على ما وضعه الجوهري ويميّز العمليّن عن بعضهما، ومن حديث الترتيب نجده جعل الباب للحرف الأخير من الكلمة –بعد تجريدها من الزوائد- والفصل للحرف الأول منها، تماما كما فعل الجوهري ومن بعد الصغاني ثم ابن منظور، وتبعهم جميعا مرتضى الزبيدي في القرن 12 هـ.

بالإضافة إلى ترتيب المداخل نجد الفيروزأبادي قد اختار الثورة على عصور الاحتجاج اللغوي التي اعتمدها والتزمها الأولون من اللغويين، وهي أن تُجمع اللغة الصافية من الشوائب في الفترة ما بين 0 و 200 هـ بالبوادي والحوضر، وفي الفترة ما بين 200 و 400 هـ من البوادي فقط لعدم اختلاط السنة الأعراب الفصحاء بالأعاجم. فالفيروزأبادي كسر هذه القيود جميعها، وراح يجمع اللغة المتوفرة في عصره من فصيح ودخيل وغريب ومعرب ومولد، على اعتبار المعجم خزانة جامعة للغة كلها، وعلى الرغم من أن هذا الصنيع متوفر في لسان العرب وبعض المعاجم السابقة إلا أن الفيروزأبادي كان جريئاً في موقفه إذ أقرّ بعدم اعترافه بفكرة الاحتجاج اللغوي.

وقد قيل في القاموس المحيط:

مُذْ مَدَّ مجدُّ الدين في أيّامه
من بعض أبحر علّمه القاموسا
ذهبت صحاحُ الجوهري كأنها
سحرُ المدائن حين ألقى موسى

ومن الجديد عند الفيروزأبادي كذلك اعتماده على الرموز المعجمية في كتابه؛ فقد اختار خمسة رموز تساعد في الشرح، وهي: (د) للبلد، و (ع) للموضع، و (ة) للقريّة، و (ج) للجمع، و (م) للمعروف الذي لا يحتاج شرحاً.